II ـــ من مظاهر الشّعوبيّة في الأندلس

بقلم : د. جمعة شيخة
كلّية الآداب ـــ منوبـة

المقدّمــة:

يتكوّن المجتمع الأندلسي[1] . بعد أن استقرّ الحكم العربي بشبه الجزيرة الإيبيريّة من أجناس مختلفة تعيش في سلّم طبقي هرميّ الشّكل[2] نجد في قمّته العربَ الفاتحين ، وفي قاعـدته سكانَ إسبانيا الأصليّين . وهم على ضربين حسب تسمية المؤرّخين العربِ لهم :

أ ـــ المسالمة وهم الذين اعتنقوا الإسلام ، وسيعرفون بعد هذا الجيل الأوّل بالمولّدين ، ويمثلون أغلبيّة السّكان .

ب ـــ العجم وهم الذين بَقُوا على دينهم من النّصارى ، وسيسمّون فيما بعد بالمستعربين .

وبين القمّة والقاعدة نجد العنصر البربري ، ويمثّلون نسبة كبيرة في الجيش الأندلسي وخاصّة مع الدّولة العامريّة . ومع البربر نجد الصقالبة وهم العنصر الأروبي في المجتمع الأندلسي وقد دخلوا بأعداد كبيرة في عهد قوّة الخلافة الأمويّة بقرطبة ، ومثّلوا الإطارات العليا في الدّولة والجيش ، وأصل الصقالبة من الرّقيق الذين يقع جلبهم من كامل أروبا وخاصّة من شرقيّها ، إلى الأندلس ويباعون فيها وتتمّ تربيتهم أحسن تربية ، فيتعلّمون اللّغة العربيّة وآدابها ، ويتدرّبون على فنون الفروسيّة والقتال ، ثمّ ينخرط وخاصّة الفحول منهم في سلك الجنديّة . ويعمل الخصيان في قصور ذوي الجاه والسّلطان . وفي المجتمع الأندلسي نجد جالية يهوديّة لا يستهان بها وجدوا في الحكم الإسلامي منجاة من الاضطهاد الذي عانوا منه الأمرّين زمن القوط وحكّامهم . فساندوا

---

(1) لا يمكن لباحث أن يتعرّف على بوادر الشعوبيّة بالأندلس دون أن يدرس التّركيبة الجنسيّة والدينية لسكانها.

(2) إنّ وجود جنس ما من أجناس المجتمع الأندلسي في طبقة معيّنة من هذا الهرم هو للأغلبيّة من هذا الجنس أو ذاك . وهذا لا يعني استحالة تحوّله أو تحوّل بعض أفراده إلى طبقة أرفع أو أحطّ . فذلك يتمّ حسب ظروف وأسباب لا مجال لتحليلها في هذا المقام .

الفتح العربي الإسلامي للأندلس . وكانوا يمثّلون في بعض المدن كغرناطة مثلا أغلبيّة السكّان من أصحاب النفوذ والجاه والثروة .

البوادر الأولى للشّعوبيّة بالأندلس :

لا شكّ أنّ المجاورة والمعاشرة وخاصّة المصاهرة بين هذه العناصر في المجتمع الأندلسي ولّدت ، بعد أجيال ، عنصرا جديدا فيه من خصائص كلّ تلك الأجناس ، ولكنّه يتميّز عنها جميعا . وهو هذا الأندلسي مَكَانًا، العربيُّ لسانا ، المسلم دينا وإيمانا .

ورغم ذلك كانت الأحداث الصّغرى منها والكبرى ، التي تنجم من حين لآخر في الأندلس تُحيي في النفوس هذه الفوارق العرقيّة فيحتدم النّزاع بين هذه العناصر المتباينة ويشتدّ ، وقد يطول . ومن المنطقيّ أن تظهر البوادر الأولى للشّعوبيّة منذ أن وطئت أوّل قدم عربيّة بلاد الأندلس ، وأخضعت كلّ العناصر الأخرى لمصالحها ، وجعلتها في خدمتها . ففي عهد الإماره ثمّ الخلافة الأمويّة بقرطبة — رغم قوّة العرب ونفوذهم — وُجد الصّراع بين المولّدين والعرب ، وكان مجالا للنّقائض الشعريّة بين الجانبين ، وخاصّة في ثورة ابن حفصون زعيم المولّدين بقلعة بُبَشْتَر الحصينة . لقد كان للعرب من جهة والمولّدين من جهة أخرى شعراء[3] ينوّهون بخصالهم ويمجدون انتصاراتهم ويتنقّصون معارفيهم ويهجون أعداءهم.ونجد كذلك في هذه الفترة تعبيرا عن الصّراع الجنسي في تأليف لم يصلنا لحبيب الصّقلبي عنوانه : (الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصّقالبة).وهو كتاب يبدو من عنوانه أنه إلى الدّفاع والاحتماء أكثر منه إلى الهجوم والاعتداء .

مظاهر الشعوبيّة في الأندلس :

لكنّ الأمر سيتغيّر كلّيا بعد سقوط الخلافة الأمويّة بقرطبة ، واقتسام هذه الأجناس المختلفة أرض الأندلس . لقد استقلّ كلّ جنس تقريبا بناحية من الأندلس الكبرى وكوّن فيها دويلات . وكان شرق الأندلس من نصيب الصّقالبة فأنشؤوا فيه ممالك : فكان في بلنسيّة الصّقلبيان مبارك ومظفّر ، وفي طرطوشة لبيب ، وفي المريّة خيران وزهير ،

---

(3) كان شاعر العرب سعيد بن جوديّ وكان شاعر المولّدين العَبْلي واسمه : عبد الرّحمان بن أحمد (تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة لإحسان عباس ص 98) .

وفي دانية أبو الجيوش مجاهد العامري . وفي ظلّ هذه الدّولة الصّقلبيّة ارتفع أوّل صوت شعوبي في الأندلس يطعن عَلَنًا في الجنس العربي وبكلّ جرأة .

والمتتبّع لتاريخ الأندلس الإسلاميّة يمكن أن يلاحظ مظاهرَ للصّراع الشعوبي بشبه الجزيرة الإيبيريّة خلال التّواجد العربي بها .

1 ــ المظهر الأوّل : ويتمثّل في رسالة كتب بها أبو عامر أحمد بن غرسية[4] في بلاط علي إقبال الدّولة[5] بن مجاهد العامري[6] صاحب دانية والجزائر الشرقيّة ، وفضّل فيها العجم على العرب ووجّهها ، على الأرجح[7] ، إلى صديقه الكاتب والشّاعر أبي عبد الله بن الحدّاد بالمريّة .

ورسالة ابن غرسية هذه تزخر بالتّمجيد للعجم والتّنويه بهم ، وتفيض تنديدا بالعرب وتحاملا عليهم . وقد استهلّها ساخرا من ابن الحدّاد (أو ابن الجزّار) الذي أوقف قريضه على بلاط المريّة العربي ، وتناسي بلاط دانية وأصحابه من (الصُّهْب الشُّهْب الذين هم ليسوا بِعُربٍ ذَوِي أَيْنُقٍ جُرْبِ)[8] . وكاتب هذه الرّسالة (لايميّز في فخره بين مختلف

(4) مولّد من كتاب شرقي الأندلس يرجع أصله إلى نصارى البشكنس . سُبي بمدينة ماردة وهو صغير . ونشأ في بلاط مجاهد الغامري وابنه علي إقبال الدّولة . وكان هذا الأخير يظهر كثيرا من التّسامح للنصارى لأنّ أمّه كانت نصرانيّة . وقد غاش ــ هو نفسه ــ وهو أسير بين نصارى سردانية . بل إنه تنصّر في تلك الفترة وعاد إلى الإسلام بعد خلاصه من الأسر .

(5) علي إقبال الدّولة بن مجاهد : تولّى الأمر بعد أبيه ، وكان وهو صبيّ قد أسّر في غزوة سَردانية التي قام بها مجاهد . وبقي في أَسْره أعواما طويلة . فلمّا عاد من أسره عاد وهو فتى يَغلب عليه صفات الرّوم ولسانهم . وعمل أبوه جاهدا لردّه إلى حظيرة الإسلام ليخلفه في ملكه . حكم ما بين 1044/436 ــ 1075/468 .

(6) مجاهد العامري : كان مجاهد من الفتيان الصّقالبة ومن الموالي العامريين بقرطبة . نزح عند اشتعال الفتنة ومقتل الخليفة المهدي إلى شرقي الأندلس فنزل أوّلا بدانية وتغلّب عليها ، ثمّ وثب على الجزائر الشرقيّة وتملّكها ، سنة 1015/405 . وقام بفتح جزيرة سردانيّة لكنّه لم يستطع الاحتفاظ بها . توفّي سنة 1044/436 .

(7) في الذّخيرة لابن بسّام وكتاب الذّيل والتّكملة لابن عبد الملك المرّاكشي أنّ ابن غرسية وجّهَ رسالته إلى أبي جعفر الجزّار (أي أحمد بن محمّد بن سهل السّرقسطي) أحد شعراء بني هود وقد خرج من سرقسطة يريد دانية ولكنّه تركها وآثر الالتحاق بالمعتصم بن صمادح بالمريّة (عبد الله عنان : دول الطوائف ص 204) .

(8) الذّخيرة : القسم 3 الجزء 2 ص 706 .

العناصر غير العربيّة ، فهو يفخر بالأكاسرة وبَنِي الأصفر وبقومِه أنفسِهم ذوي الأُرومة الرّوميّة والجرثومة الأصفريّة)[9] ، وحضارةُ العرب وتفاهتهم تقابلهما عظمة العجم ومجدهم ، فهم (مُجُد نُجُدُ بُهَمٌ ، لاَ رُعَاة شُويهات ولا بَهَم ، شُغِلُوا بالمَاذيّ والمُرّان ، عن رَعْي البُعْران وبجَلْب العِزّ عن حَلْب المعز)[10] . ولا غرابة في ذلك فقد وَرِثوا الذلّ والعبوديّة من جدّتهم هاجر أمّ إسماعيل [11].

والرّوم مع نزعتهم الأرستقراطيّة في الملبس والمأكل اهتمّوا بشتّى العلوم ووصلوا فيها إلى أعلى الدّرجات فهم (حُلُم عُلُم ذَوُو الآراء الفلسفيّة الأريضيّة ، والعلوم المنطقيّة الرّياضيّة ... والنّهضة بعلوم الشّرائع والطّبائع ، والمهرة في علوم الأديان والأبدان).[12]

أمّا العرب فمع مهنهم الحقيرة ، كانوا في حيَاتهم لا يلبسون إلاّ الخشن من الثياب ولا يأكلون إلاّ أردأ المطاعم . وهم في حياتهم لا همّ لهم إلاّ التّكالب على الملذّات والانغماس فيها والتخلّي عن جليل الأعمال والانزواء عنها ، على عكس الرّوم الذين (شدهوا برنّات السيّوف ، عن رنّات الشّنوف . وبرُكوب السّروج عن الكحوب والفروج ، وبالنّفير عن النّقير ، وبالجنائب عن الحبائب وبالخَبّ عن الحبّ وبالشّليل عن السّليل وبالأمر والذّمر عن معاقرة الخمر والزّمر)[13] .

وبذكاء وفطنة ومهارة وحنكة ، استطاع ابن غرسية أن يموّه ويراوغ بمدحه للرّسول . وهو لا يرى في تشنيعه بالعرب والافتخار بالنّبيء تناقضا ، ففي التّراب نجد الذّهب ، ومن دم الغزال يُستخرج المسك . قال : (وبهذا النبيء الأُمّي أفاخِر من تَفَخّر ، وأكاثر من تقدّم وتأخّر الشّريف السلفين والكريم الطّرفين ... ولا غرو أن كان منكم (أي العرب) حِبْرُهُ وَسِبْرُه . ففي الرّغام يُلْفى تبره ، والمسك بعض دم الغزال)[14] .

ولقد أثارت رسالة ابن غرسية[15] لوقاحتها وجرأتها دهشة من عاصره من الكتاب

---

(9) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ص 173 .
(10) الذخيرة 706/2/3 .
(11) جاء في الرّسالة قوله (فلا تهاجر بني هاجر ، أنتم أرقّاؤنا وعبدتنا) الذخيرة 707/2/3 .
(12) الذّخيرة : 2/2/3 — 711 .
(13) الذّخيرة : 709/2/3 .
(14) الذّخيرة : 712/2/3 .
(15) نشر العلاّمة المستشرق جولد زيهر رسالة ابن غرسية ضمن بحث له بالألمانيّة عنوانه (الشعوبيّة =

ومن جاء بعده منهم . فردّوا عليها : من ذلك رسالة أبي جعفر أحمد بن الدّورين البلنسي (عاش في النّصف الثّاني من القرن 11/5) ورسالة أبي الطّيب بن منّ الله القروي (ت 1096/493) . وقد جعلها تحت عنوان : (حديقة البلاغة ودوحة البَراعة بذكر المَآثر العربيّة ونشر المفاخر الإسلاميّة).

ولا تخلو الرّسالتان السّابقتان من تهديد ووعيد لابن غرسية ، ومن قلب لكلّ الرّذائل التي ألحقها بالعرب واحدة واحدة ، إلى خصال . وإلصاق مثيلاتها (أي المساوىء) بالرّوم . وقد اتّفق الكاتبان على ذمّ العجم بعدم الغيرة والتخنّث وإباحة الفروج . ولئن اعترف ابن الدّودين للعجم ، وحتّى يظهر بمظهر عدم التحامل عليهم ، بعلم الطّبائع فقد أنكر عليهم علم الشّرائع . وأمّا ابن منّ الله القروي فقد أظهر مَدَى لؤم ابن غرسية فقد تَربّى في أحضان دولة العرب وحضارتهم وكرع من آدابهم وتفقّه في لغتهم ، ولخبث طويّته ودناءة عنصره صال بها عليهم وجال .

وتواصلت الرّدود على ابن غرسية في العهد المرابطي في النّصف الأوّل من القرن 12/6 مع أبي عبد الله ابن أبي الخصال (ت 1145/540) في رسالة عنوانها : (خطف البارق وقذف المارق في الردّ على ابن غرسية الفاسق) . وفي العهد المُوحّدي مع أبي يحيى بن مسعدة (عاش في النّصف الثاني من القرن 12/6) ، ومع الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمّد الأوسي برسالة عنوانها (الاستدلال بالحقّ في تفضيل العرب على جميع الخلق)، ومع ابن الفرس وعبد الحقّ بن فرج ، ومع أبي الحجّاج يوسف ابن محمّد البلوي (عاش في القرن 13/7) في كتابه (ألف باء) ، فقد خصّص فصلا للتّنويه بفضائل العرب ، ثمّ ردّ على رسالة ابن غرسية [17] .

= عند مسلمي إسبانيا) بمجلّة جمعيّة المستشرقين سنة 1899 ص 601—620 . كما نشرها الأستاذ مختار العبادي ضمن بحث له عن (الصّقالبة في إسبانيا) طبعة مدريد 1953 .

(16) تُوجد رسالة ابن غرسية وهذان الردّان في الذّخيرة القسم الثالث الجزء الثّاني بداية من صفحة 705. وهناك ردّ ثالث يغلب على الظّن أنّه معاصر لابن غرسية موجود مع بقيّة الرّدود في مخطوطة الأسكريال المعنونة برسائل إخوانيّة .

(17) نشر رسالة ابن غرسية وكلّ هذه الرّدود الأستاذ عبد السّلام هارون ضمن مجموعة نوادر المخطوطات (المجموعة الثالثة) وطبعت بالقاهرة 1373 . وقد ترجم الأستاذ جيمس منرو هذه الرّسالة والرّدود عليها في كتاب بعنوان الشّعوبيّة في الأندلس (بالأنقليزيّة) وطبعه بكاليفورنيا 1970 .

المظهر الثاني :

ويبدو أقلّ حدّة من المظهر الأوّل وأخفت ظهورا . ويمكن أن تدرج النّصوص التي جاء فيها هذا المظهر الثّاني للشّعوبيّة ضمن الأدب الرّمزي ، من خلال قطَع شعريّة وضعها أصحابها على لسان الأزهار ، وتخيّلوا جدلا بينها في المفاضلة . وعادة ما ينتهي هذا الجدل باتّفاق الجميع على تفوّق نوع منها فتتمّ مبايعته . ولنا من ذلك نموذجان :

أ ـ الأوّل :

يتمثّل في رسالة لأحمد بن محمد بن برد الأصغر [18] تصوّر فيها اجتماع نواوير خمسة هي النّرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيريّ النمّام . والقائم عليها (لم يذكر اسمه) . وقد قام هذا القائم في الجمع خطيبا منوّها بحكمة الله في خلق عباده درجات ، ثمّ أقرّ واعترف بالذّنب الذي وقعت فيه النّواوير عندما أخذها العجب بنفسها كلّ مأخذ ، فادّعت لنفسها (الفضل بأسره والكمالَ بأجمعه ، ولم تعلم أنّ فيها من له مزيّة عليها ومن هو أولى بالرّئاسة منها ومن يجب له عليها التحرّج ومدّ يد المبايعة ... فهو الأكرم حسبا والأشرف زمنا والأتمّ خصالا ... والطّيب إليه كلّهُ محتاج ، وهو عن جميعه مستغن ، وهو أحصرّ والحمرة لون الدّم، والدّم صديق الرّوح وصيغة الحياة)[19]. وتقرّ النّواوير بسرعة بذنبها وتبادر بتلافي خطئها، فتتّفق على إيثار صاحب الحقّ وهو الورد وتفضيله والدّعاء له وبذل ذات النّفس في سبيله . وتتولّى هذه النّواوير الحاضرة تدبيج رسالة إلى الغائب من جنسها ليدخل الجميع في هذه البيعة المباركة . وتختم الرّسالة بشهادة من حضر . قال النرجس شاهدا :

[رمل] [20] .

شهد النّرجسُ والله يَرَى صِحّة النِّيات منها والمرض
أنّ للورد عَليه بيعةً أكّدت عقدا فما إنْ تُنتَقِضْ

---

(18) أبو حفص بن برد الأصغر صاحب نظم ونثر اتّصل ببلاط المريّة أوّلا ثمّ استقرّ بدانية في بلاط مجاهد . ذكر الحميدي أنّه رآه بالمريّة بعد 1048/440 (ابن سعيد : المغرب : 86/1) .

(19) أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري ، (ت حوالي 1048/440) : البديع في وصف الرّبيع تحقيق هنري بيريس . الجزائر 1940 ص 5 ـ 54 .

(20) المصدر السّابق ص 57 .

وقال البنفسج : [مجزوء الكامل][21]

شهـــد البنـــفسج أنّـــه للـــورد عبـــدُ تمـــلّكِ
يسعـــى بقـــلبٍ نـــاصح فـــي حبّـــه مُسْتَهْـــلِك

وقال البهار: [كامل][22]

شَهِـد البهـار وذو الجلالـة عالـم بصحيـح مـا يُبـدى ومـا يُخْفِيـه
أنَّ الإمـارةَ فـي الأزاهـر كلِّهـا للـورد لا يُؤْتَـى لَـه بِشَبِيـه

وقال الخيريّ النمّام : [رمل][23]

شهـــد الخيـــريّ بَـــرًّا صَادقـــا قولـــة أبعـــدَ عنهـــا الـــدَّرك
أنّ أزهـــارَ الثّـــرى أجمعَهـــا أعبُـــدٌ والـــورد فيهـــا مَـــلِكُ

وليس بخافٍ هدف ابن برد من هذه الرّسالة التي بعث بها من بلاط مجاهد العامري بدانية وهو مولى (أي غير عربي) إلى بلاط أبي الوليد بن جهور بقرطبة وهو عربي . فهو يوميء إلى أنّ صاحبه الأعجمي ينفرد بين الرّؤساء (ملوك الطوائف) تفرّد الورد بين النّوّار ، وأنّ هذا التفرّد يجب أن يؤخذ بالتّسليم الكامل .

وكان ما هو متوقّع من رفض بلاط إشبيلية وحكّامه من بني عبّاد ، وهم ينتمون إلى أعرق البيوتات العربيّة ، هذه البيعة . وقام أحد كتّابه بالردّ على ابن برد فكان النموذج الثّاني ويتمثّل في :

2 ـــ **رسالة** كتبها أبو الوليد إسماعيل الحميري صاحب كتاب (البديع في وصف الرّبيع) ، وبعث بها إلى المعتضد بن عبّاد حاكم إشبيلية ، وقد استهلّها بقوله: (كان من اجتماع بعض النّواوير واتّفاق طائفة من الأزاهير على تقديم الورد عليها وتفضيله بينها وتخيّره للخلافة منها ما قد وقفت عليه ونظرت إليه ... فأوّل من رأى ذلك الكتاب وعاين الخطاب نواوير فصل الرّبيع التي هي خيرة الورود في الوطن وصحابته في الزّمن . فلمّا قرأته أكبرت ما فيه وبنت على هدم مَبانيه وبعض معانيه ،

(21) المصدر السّابق .
(22) المصدر السّابق .
(23) المصدر السّابق .

وعرّفت الورد بما عليه ، فيما نسب إليه من استحقاقه ما لا يستحقّه واستئهاله ما لايستأهله...)[24] وانتهى النّقاشُ بين الأنوار بنقض بيعة الورد ومبايعة البهار وطلب الصّفح والغفران منه وقد وقع التّعَدِّي على حقوقه في الرّئاسة والخلافة . وهذه شهادة الخيريّ الأصفر: [رمل][25]

أصفـــر الخيـــريّ يشهـــد أنّ عقـــد الـــورد قَـــدْ رُدْ
ويـــرى أنّ البهـــار الْـــ مُنتقَـــى أعلـــى وأمجَـــد
مَـــلك يَقْظَـــانُ يأتـــي وصنـــوفُ النّـــور هُجَّـــد

وتتوالى شهادة بقيّة النّواوير ونقض بيعتهم للورد ومبايعة البهار نثرا وشعرا[26] .

وليس بخاف ما في هذه الأبيات وغيرها من دعوة سياسية صريحة لبلاط إشبيلية العربي ضدّ بلاط دانية الأعجمي . وقد يأخذ مثل هذا التّنافس الخفيّ شكل التّنابز الصّريح . فهذا مجاهد العامري ــ وقد استقطب بلاطه الصّراع الشّعوبي بالأندلس في القرن 11/5 ــ لمّا فسدت علاقته بصاحب بلنسيّة المنصور بن أبي عامر الأصغر ، ولم يجد من سبيل إلى الاعتداء عليه ، كتب إليه رقعة ولم يضمنّها غير بيت الحطيئة [بسيط][27]

دَعِ المكـارم لا ترحـــل لبغيتهـــا واقعـد فـإنّك أنت الطاعـم الكـاسي

فأخرجت المنصور وأقامته وأقعدته ــ على حدّ تعبير صاحب النّفح ــ فأحضر وزيره أبا عامر بن التّاكرني فكتب عنه [كامل][28]

شتـــمت مواليهـــا عبيـــد نـــزار شِيَـمُ العبيـــد شتيمـــة الأحـــرار

وهو بيت يلمّح لعبوديّة مجاهد ، فهو مولى لبني عامر ، وسخريّته بأحد منهم إنّما هي نموذج لتطاول العبيد من الموالي على سادتهم العرب .

---

(24) المصدر السّابق ص 9 ــ 58.
(25) المصدر السّابق ص 59 .
(26) المصدر السّابق ص 6 ــ 65 .
(27) المقّري : نفح الطيب : 132/4 .
(28) المصدر السّابق .

المظهر الثالث :

يأخذ المظهر الثالث للشّعوبيّة في الأندلس بعدا ثالثا وهو المفاضلة بين شعوب الغرب وشعوب الشرق جميعا ، أي بين الجنس الآري والجنس السّامي . وهذا يتمثّل في مقامة كتبها أحد كتاب غرناطة وقضاتها في العصر الأخير لدولة الإسلام بالأندلس وهو أبو الحسن النّباهي . وتولّى شرح هذه المقامة بنفسه تحت عنوان (الإكليل في فضل النّخيل) .

والمؤلّف هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمّد بن الحسن الجذامي المعروف بابن الحسن والمشهور بالنّباهي المالقي من قضاة دولة بني الأحمر في غرناطة وكتّابها ومؤرّخيها . ولد بمالقة 1313/713 تولّى خطّة القضاء بحاضرة الدّولة النّصريّة ، وكان في أوّل الأمر صديقا لابن الخطيب ثم عدّوا لدودا له . توفي في أواخر القرن 14/8 .

أمّا المقامة فهي عبارة عن مفاضلة بين نخلة وكرمة ، استهلّها المؤلف (بمقدّمة ذكر فيها الدّافع النّفسي الذي حفزه إلى كتابتها وهو الحنين إلى العراق والتعلّق الرّوحي به . ثمّ انتقل إلى مخاطبة النّخلة مسلّما عليها ، ممجّدا لها وعقّب بنقل جواب النّخلة كما تخيّله . ثمّ ردّ على النّخلة يتهجّم عليها مستفزّا لها بتعديد محاسن الكرمة . وجاء بعد ذلك جواب الكاتب على لسان أبي عليّ القالي (ت 967/356) في الدّفاع عن النّخلة . وختم بالتّصريح بعجزه عن معارضة القالي وإقراره ضمنيّا بفضل النّخلة على الكرمة)[29] .

وواضح أنّ النّخلة أصبحت في هذه المقامة رمزا للشّرق وروحانيّته ، وأصبحت الكرمة رَمزا للغرب وتفوّقه . بل إنّ النّخلة أصبحت في دولة بني نصر في الجزء الجنوبي الشّرقي لشبه الجزيرة الإيبيريّة رمزا للأمل الآتي من الشّرق ، فهو منبع الوحي وإليه تحنّ النّفوس تعلّقا . وهو مصدر النّجدة ، فنحوه تشرئبّ الأعناق تطلّعا . والنّخلة،وهي باسقة بجوار قصر الحمراء ، رمز لصمود الشّرق بصبره أمام هجمات الغرب بقسوته ولا تُخفي النّخلةُ معاناتها ممّا تتعرّض له من تعدٍّ صارخ من عدوّ متعسّفٍ قائلة (وما عسى أن أبثّ من شكاتي وجُلّ علاّتي ، لعمرك في تركيب ذاتِي . وأجدُ مع ذلك أنّ وقاري ، حسّن لدي الحيّ احتقاري . وكثرة قناعتي ، أثمرت إضاعَتي . وكمال قدّي ، أوجب قَدّي ، فما أنس من الأشياء لا أنس عبث مَنحوس ، من أُحبوش اليهود

(29) أنظر مقال لحسناء الطرابلسي بعنوان (مقامة تفضيل النّخلة على الكرمة) للنّباهي المالقي : حوليّات الجامعة التونسيّة 1988 عدد 27 ص 205 .

أو المجوس يفحص بمديته عن وريدي ويَحْرص على جبر جريدي ، ويجدع كلّ عام بخنجره أنفي . وكلّما رمت كَفّ إذايته عليّ كشح كفّي . فلو رأيتم صعصعة أفناني وسمعتم ، عند جذم بِناني ، قعقعة جناني والدّمع لما جفاني يَفيض من أجفاني)[30]

الخاتمــة :

وهكذا يبدو لنا أنّ الشّعوبيّة في المشرق العربي ، لئن اتّخذت شكل الجدل والخصومة بين جنسين لا ثالث لهما أي الفرس والعرب ، فإنّها بالأندلس أخذت مظاهر أخرى فقد حافَظت في المظهر الأوّل على أنّ العنصر المُهاجَم هو الجنس العربي ، وتعدّدت فيه العناصر المُفضّلة من مولّدين وصقالبة وبشكنس (أي الجنس الأروبي عامّة) . ثمّ أصبح ، في المظهر الثّاني ، العنصر البربري مع العنصر العربي في كفّة واحدة من ميزان المفاضلة بينهما وبين العناصر الأروبيّة وخاصّة الصّقلبيّة منها. وأخذت الشّعوبيّة في المظهر الثّالث ومنذ القرون الوسطى شكل المواجهة المستمرّة إلى اليوم بين الغرب المُتفوّق المُهَاجِم والشّرق المستكين المُدَافع ./.

سفـرجلـة

قال جعفر المصحفي [1] : [الطويل]

وَمُصْفَـرَّةٍ تَخْتَـالُ فِـي ثَـوْبِ نَـرْجَسٍ وَتَعْبَـقُ عَـنْ مِسْكٍ ذَكِـيِّ التَّنَـفُّسِ
لَهَـا رِيـحُ مَحْبُـوبٍ وَقَسْوَةُ قَلْبِـهِ وَلَـوْنُ مُحِبٍّ، حُلَّـةَ السُّقْـمِ مُكْتَسِ
فَصُفْرَتُهَـا مِـنْ صُفْرَتِـي مُسْتَعَـارَةٌ وَأَنْفَاسُهَا فِي الطِّيبِ أَنْفَاسُ مُؤْنِسِي

ابن الأبّار : الحلّة السّيراء 261/2

(1) جعفر المصحفي : جعفر بن عثمان بن نصر، أبو الحسن، الحاجب المعروف بالمصحفي : وزير، أديب، أندلسي من كبار الكتاب له شعر جيّد. تقلد مناصب هامّة في الدّولة منذ عهد الخليفة عبد الرّحمان النّاصر إلى أن وصل إلى أعلى منصب وهو الحجابة في عهد هشام المؤيّد. تغلّب عليه داهية الأندلس المنصور بن أبي عامر فسجنه ثمّ قتله سنة 372هـ/982م (الأعلام : 119/2).

(30) المقال السابق ص 210 .